حلم العودة إلى باريس

"بعض الذكريات وطن حين تطفو على الذاكرة"

انتهت السنة الدراسية، وفكر المعلم في زيارة باريس. فكر في زيارة مقهاه المفضل "دُفرونس"، وشرب مشروب بارد ممزوج بقطع الثلج. كان يحلم بزيارة المكان كل ليلة، واسترجاع بعض ذكرياته. لكن هذه المرة لن يكون لوحده؛ سيصطحب فاطمة لأول مرة معه. ليزا أيضا لم تتعرف على فاطمة بعد. لكنها أحبتها من خلال المكالمات الهاتفية التي تجريها كل يوم.

حزمت فاطمة حقيبتها، وودعت الدوار، وقبلت نعاجها، ومسحت دموع جارتها السعدية، التي أصيبت بالدوار، فقط، حينما علمت أنهما سيسافران على متن الطائرة..

أجرى المعلم آخر اتصالاته، وودع أصدقاءه. فكر في ليزا: كيف ستستقبله وهو مع فاطمة؟

هل ستبادله الذكرى، أم ماذا؟

لم يعبأ بكل ما يحول حوله آنذاك في الدوار. كان تفكيره منصبا على باريس. وعلى نهر الرين، الذي كان شاهدا على لحظات ماتعة بيته وبين ليزا.

اليوم، صارت ليزا حلما، وذكرى في الآن نفسه. فالوصال مستحيل، والتفكير في الذكرى مؤلم. وحتى إن حدث ذلك، فهو خيانة لفاطمة.

لعل وجود فاطمة في حياته غير الشيء الكثير. ولعل اختياره البقاء في الدوار كان سببا حقيقا، ولعل العودة من فرنسا إلى الوطن، والتفكير في عمل مناسب كان السبب.

إنه حينما يفكر جيدا، ويتأمل في الأمر الواقع، يجد الوطن هو السبب في كل ما يحصل له. وأحيانا، يلوم حبه الزائد للوطن. فلو بقي في باريس، وتزوج بليزا، واستقر هناك، كما قالت له، ودرس العربية لغير الناطقين بها هناك، لكانت حياته جميلة.

سيعود في الصيف كما كل المهاجرين راكبا سيارة "غولف" راقية، ولابسا شوطا قصيرا، ومفاتيح السيارة في يده. وسيكون أبناؤه أبناء شقرا. لونهم يشبه لون أمهم ليزا، وملامحهم تشبه ملامح أبيهم، المائلة إلى الأفارقة.

سيتحدثون دارجة ممزوجة بالفرنسية، وسيعتقد أبناء الدوار أن فيهم "تكبرا زائدا"، وأنهم يتحدثون بتلك الشاكلة، فقط، ليقولوا لهم "إن فرنسا ليست كالدوار؛ إذ بإمكانهم تعلم الفرنسية بكل سهولة."

وتعلم الفرنسية والنطق بها بشكل سليم، هو حلم كل من يعيش في الدوار. الكل يمني نفسه أن يتواصل مع السياح النصارى، الذين يقدمون لتفقد القصبات والقصور الموجودة على طول الوادي.

لو بقي في فرنسا لأنهى الدكتوراه هناك، ولاشتغل هناك بـ"كوليج دو فرانس" أو بإحدى الجامعات أستاذا محاضرا. سيكون جوهرة فريدة من نوعها، وهو يلقي محاضراته هناك مثلها "أدونيس" والعرب الآخرين. سينظر إليه الفرنسيون نظرة احترام ووقار.

لو بقي في فرنسا ربما صار كاتبا مشهورا، وربما تباع كتبه بالملايين. لكن، ماذا لو تزوج بليزا ولم يتأقلم معها؟ ماذا لو كان صديقها توماس يزورها كما كان يفعل؟ ماذا لو كان يختلي بها؟ ماذا لو كانت ليزا تخطط هي الأخرى لحياة أخرى غير ما هي عليه؟

ربما خاف من كل هذه الأسئلة، ومن المستقبل المجهول. لذلك عاد إلى الوطن؛ عاد إلى الدوار. واختار أن يعيش بقية حياته مع فاطمة. واختارته فاطمة رغم أنها جاءت من المدينة لتستقر معه.

هل يعلم المرء معنى أن يتخلى الآخر عن حلمه، الذي أوشك على التحقق؟ إنه يعني الموت البطيء. إنه يعني أن تصلب بعد أن ترجم، وتبقى روحك معلقة بين السماء والأرض. الإنسان لا يفهم أن في دوار صغير، كما في مدن كبيرة، ينمو الحب، ويعيش، ويترعرع..لا يفهم أيضا أن الإنسان يغيره الزمن ويقهره.

النساء في الدوار يرغبن في أن يقبل الشباب أيديهن احتراما لهن، حتى وإن كانوا أجانب. إنها علامة دالة على مكانة المرأة العالية، وكبريائها، وقدسيتها. وإذ ينظر المعلم إلى هذه التصرفات، ويذكره ذلك بتقبيل الرجال أيدي النساء في باريس، يكتشف أن الأنثى أنثى أينما كانت، وحيثما عاشت. فهي تحتاج إلى من يشعرها بقيمتها و أنوثتها.